منظومة الحافظ الذهبي في أصول معتقده

ومقطوعتان أخريان

(تُنشر أوَّلَ مرة)

كشف عنها وحقَّقها

محمد بن عبدالله السريّع

شبكة الألوكة
www.alukah.net

منظومة الحافظ الذهبي في أصول معتقده

ومقطوعتان أخريان

(تُنشر أوَّلَ مرة)

كشف عنها وحقَّقها

محمد بن عبدالله السريّع

١٤٤٠هـ

الحمد لله وحده. وبعد:

فهذه أبياتٌ نظمها العلَّامةُ الحافظُ مؤرِّخُ الإسلام أبو عبدالله؛ محمد بن أحمد بن عثمان ابن الذهبي (ت ٧٤٨هـ) -رحمه الله-، مبيِّنًا فيها قولَه ومذهبَه الذي يذهب إليه في أبرز قضايا أصول الدين الاعتقادية، حيث وَصَفَها في أبياته بـ«الشِّرعة»، و«العقيدة»، و«الدِّين»، وقرَّرها بلُغةٍ قويةٍ واضحة.

وقد وقع ما وصلنا من هذه المنظومة في أحد عشر بيتًا، تعرَّض فيها لأهم أصول معتقده، كمذهبه في صفات الله -جل جلاله-، وموقفه من الصحابة -رضي الله عنهم-، وتابعيهم، والأشاعرة، والمعتزلة، والرافضة، وغير ذلك[١].

وتتجلَّى أهمية هذه المنظومة في نواحٍ، أبرزها ناحيتان:

١- بيان معتقد الحافظ الذهبي بصفةٍ مستقلة، وبكلماته الشخصية، وتعبيراته الخاصة، حيث لم يكن يُعرف أنه ألَّف في ذلك أو نظم استقلالًا، وإنما اشتُهر أنه صنَّف في قضايا اعتقاديةٍ محدَّدة[٢]، ومن ثم كُتِبَت بعضُ الرسائل في استنطاق مصنَّفاته وتعليقاته بآرائه العقدية[٣].

---

(١) انتهت المنظومةُ في الأصل الخطي المعتمد من غير إيذانٍ باختتامها في أبياتها، ولا إعلامٍ بذلك بعدها، وذلك -لا شك- يلقي باحتمال انقطاع بقيَّتها، خصوصًا مع قلَّة ما تضمَّنته من قضايا الاعتقاد، إلا أن حالة المخطوط لا تشي بذلك الانقطاع، حيث إن الحياكةَ الثابتة، ومقاديرَ الملازم والكراسات، واستمرارَ سياق النقل عن الذهبي، أمورٌ تدفع احتمال السقط، لكنه يبقى مطروحًا حتى يُظهر اللهُ أمرَه.

(٢) منها: إثبات اليد لله -عز وجل-، الأربعين في صفات رب العالمين، إثبات الشفاعة، صفة النار، ذم البدعة والفرق الضالة، رؤية الباري، العرش، العلو للعلي الغفار. انظر: الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام، د. بشار عواد (ص١٣٣-١٣٩).

(٣) منهج الإمام الذهبي في العقيدة وموقفه من المبتدعة، سعيد بن عيضة الزهراني (١٤١١هـ). عقيدة الإمام الذهبي، سليمان بن صالح الخراشي (١٤٢٠هـ).

ولا يقف الأمر عند معرفة اعتقادِ الذهبي، بل سيأتي أن هذه المنظومة نُقِلَت عنه في حدود السنوات الثلاث الأخيرة من حياته، فيمكن إذن أن يقال: إن مضمونَها هو خلاصةُ اعتقاده الذي نحسب أنه مات عليه -رحمه الله-.

٢- إظهار جانب النَّظم الشِّعري لدى الحافظ الذهبي، وهو جانبٌ خفيٌّ نسبيًّا من مَلَكاته المتعدِّدة، فقد «ذكرتْ لنا مصادرُ ترجمته بعضًا من نظمه في المدح، والرثاء، وله شعرٌ تعليمي، حيث نظم أسماء المدلسين، وأسماء الخلفاء»[٤]، ولا أحسبه يُوقَف وراءَ ذلك على كبير شيء.

هذا، ولا يُداخِل صحَّةَ نسبةِ هذه الأبيات إلى الذهبي شكٌّ ولا تردُّد، ذلك أنها مرويةٌ عنه بلفظ: «أنشدني لنفسِه»، ومكتوبةٌ بخط تلميذٍ له، خَصِيصٍ به، قال فيه الذهبيُّ نفسُه: «قرأ عليَّ كثيرًا»[٥]، وقال فيه ابن حجر: «لازَمَ الذهبيَّ فأكثَرَ عنه»[٦]، وقال: «وحضر عند الذهبي، ولازَمَه، وأثنى الذهبيُّ على فضائله»[٧]، ذلك هو القاضي الجليل العلَّامة برهان الدين إبراهيم بن عبدالرحيم بن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة الكناني الشافعي (٧٢٥هـ - ٧٩٠هـ).

وبملاحظة تاريخ مولد البرهان[٨]، ومراجعة بعض السماعات التي ذُكِر فيها[٩]، يُفهم أنه لازم الذهبيَّ في أخريات حياته، فجاءه على استواءِ علمه وتعليمه وتربيته، وأفاد منه في ذلك كله.

---

(٤) الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام (ص١١٩)، بتصرف يسير.

(٥) المعجم المختص (ص٥٧).

(٦) رفع الإصر (ص٢٧)، الدرر الكامنة (٤١/١).

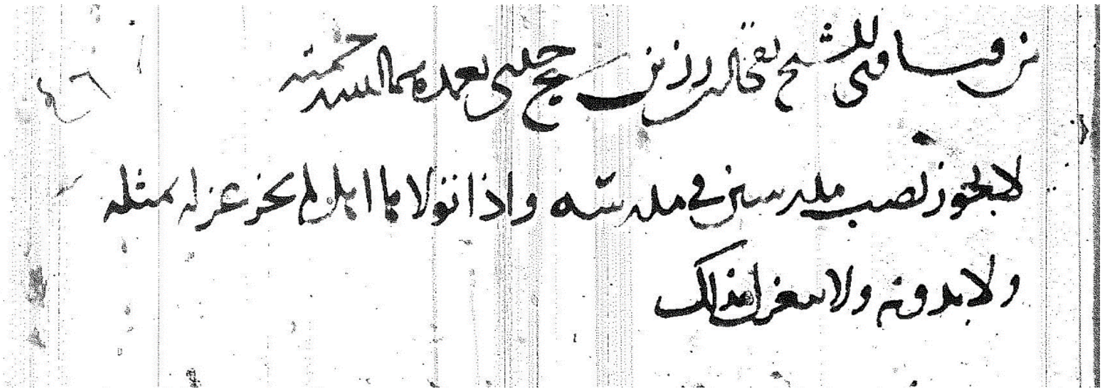
(٧) إنباء الغمر (٣٥٥/١)، يعني قول الذهبي في المختص (ص٥٦): «وهو في ازديادٍ من الفضائل».

(٨) هو واحدٌ مِن أصغر مَن ترجمهم الذهبي في معجمه المختص -فيما رأيت-.

(٩) كسماعٍ على الذهبي مؤرخٍ بجمادى الآخرة، ٧٤٢هـ: لاله لي، ٣٥٨١ [٤٨ب]، وسماعٍ على المزي -وقد ذُكِرَ أنه لازَمَه ملازمتَه للذهبي- مؤرخٍ بجمادى الآخرة، ٧٤١هـ: الظاهرية، ١١٣٩ [٥٨ب].

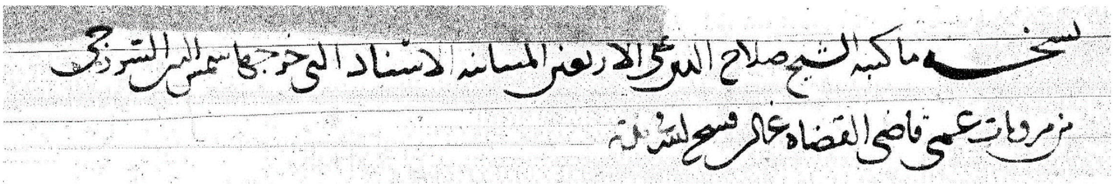
تقع النسخةُ ضمن كُنَّاشٍ غُفلٍ، مبتورِ الطرفين، لم يضمِّنه كاتبُه تصريحًا باسمه، ولا فُهرِسَ إلا بما يزيد أمرَه وأمرَ كاتبِه غموضًا. لكنَّ قراءةً فاحصةً له تجلِّي كونَه للبرهان ابن جماعة جلاءً لا يكاد يدع قولًا لقائل، وذلك بتعاضُد قرائن قوية، أدناهُ بيانُها مرتَّبةً حسب قوَّة دلالتها على المراد:

١- نقل الكاتب [٤٦أ] فتيا قال في مصدرها: «من فتاوى الشيخ تقي الدين ابن رزين، شيخِ جَدِّي -تغمَّدهما الله برحمته-».



وقد قال الذهبيُّ في ترجمة التقي ابن رزين: «وتخرَّج به أئمة، منهم قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة وغيره»(١٠).

ونقل [٥٠أ] تعليقةً قال في بيان موضعها: «الأربعين المتباينة الإسناد التي خرَّجها شمس الدين السروجي من مرويَّات عَمِّي قاضي القضاة عز الدين -فسح الله في مُدَّته-».



وقد ذكر ابنُ حجر في مرويَّات بعض شيوخه: «الأربعين المتباينة من مرويَّات عز الدين ابن جماعة، تخريج محمد علي بن أيبك السروجي»(١١)، وعز الدين هو أحد أبناء قاضي القضاة بدر الدين المذكور سلفًا.

---

(١٠) تاريخ الإسلام (١٥/٤٠٠).

(١١) المجمع المؤسس (١/٨٢).

وعليه، فالرجل ابنُ أخٍ للقاضي عز الدين ابن جماعة، وحفيدٌ لقاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة، ولا يُعرَف بهذه الصفة ممَّن له عنايةٌ بالعلم إلا البرهان إبراهيم بن عبدالرحيم.

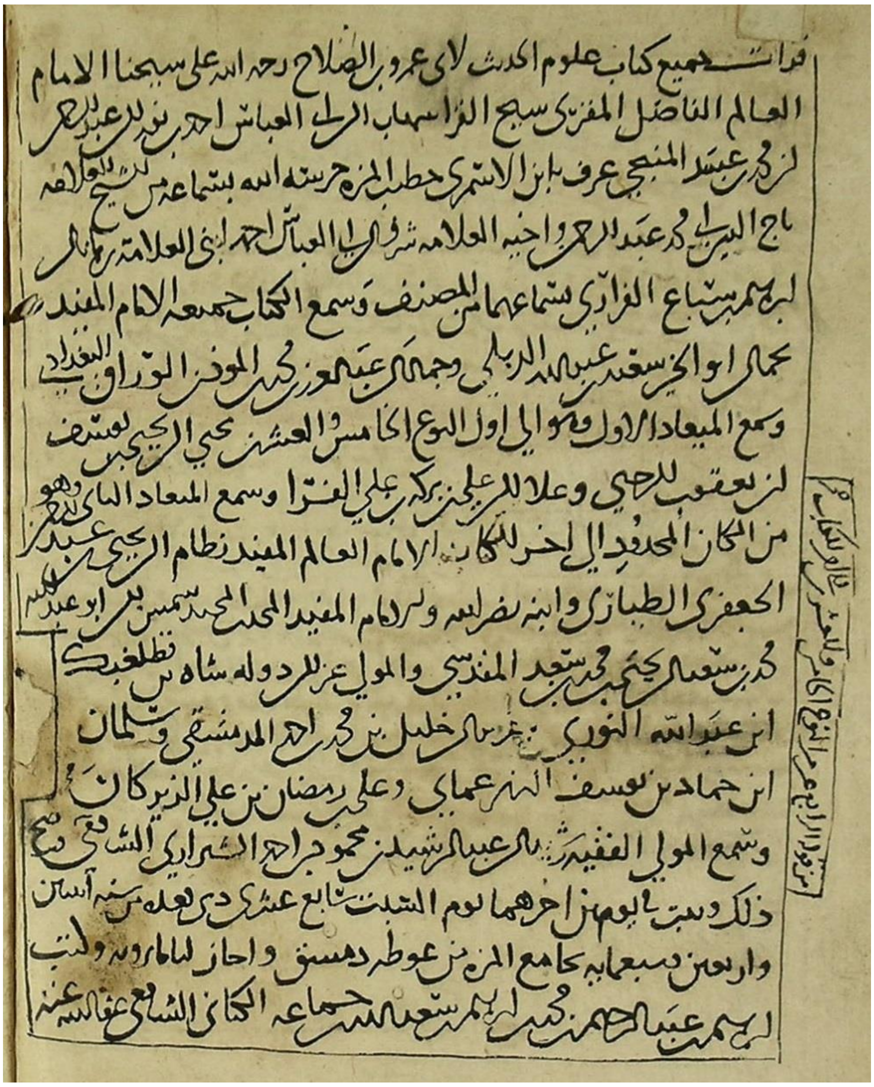
٢- يتبيَّن، بمراجعة نماذجَ من خط البرهان ابن جماعة، أنه مطابقٌ لخط صاحب هذا الكناش، وأنه لا يغايره إلا مغايرةً لا بُدَّ من حصولها باختلاف الأزمان والأحوال[١٢].

وهنا طرفٌ من تلك النماذج:

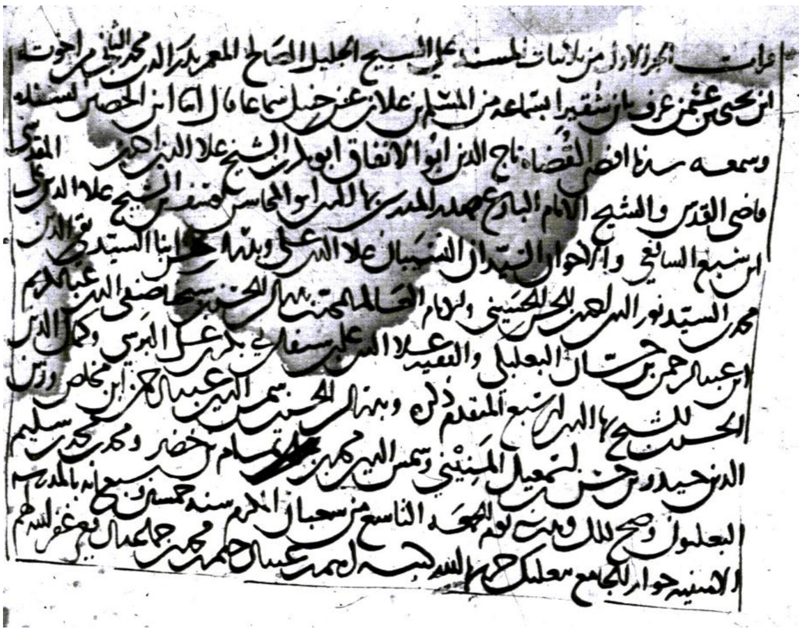


خط البرهان ابن جماعة في سماعٍ مؤرخٍ بربيع الآخر، ٧٤٢هـ

(١٢) انظر: معرفة خطوط الأعلام، لكاتبه (ص١٣٩). **تنويه**: أوردتُ هناك (ص٢٧) أن معرفة الخطوط تفيد أحيانًا في معرفة مصنِّف المخطوط مجهولِ المؤلف، وقد فتح الله -بفضله-، فتعرَّفت، بعد التعرُّف على خط البرهان ابن جماعة في هذا الكناش، على قطعةٍ من تفسيره كنتُ قيَّدتُها لمجهول، وهي بخطه -أيضًا-، وقد قال ابن حجر في الدرر الكامنة (٤٢/١): «وجمع تفسيرًا في عشر مجلدات، وقفت عليه بخطه، وفيه غرائب وفوائد». وانظر التنبيه في الحاشية التالية.



خط البرهان ابن جماعة في سماعٍ مؤرخٍ بذي القعدة، ٧٤٢هـ



خط البرهان ابن جماعة في سماعٍ مؤرخٍ بشعبان، ٧٥٠هـ



تملكات للبرهان ابن جماعة

٣- ذكر الكاتبُ الحافظَ الذهبيَّ في أربعة مواضع -تأتي نصوصُ ثلاثةٍ منها تامَّةً-، ولم يترك وصفَه بـ«شيخنا» في أيٍّ منها. وقد مرَّ أن البرهانَ ابنَ جماعة لازَمَ الذهبيَّ، وأكثَرَ عنه.

٤- نقل الكاتبُ عن الحافظ العلائي (ت ٧٦١هـ) نقولًا نفيسةً عديدة، وكان يُنَوّع في تسميته حالَ نقلها عنه، تنويعًا يشير إلى أنه كان قريبًا منه، لا يحتاج إلى كبير بيانٍ لتعيينه ومعرفته، بل يحصل ذلك عندَه بمجرَّد الإشارة إليه. وكذلك كان البرهان ابن جماعة بلديًّا للعلائي في بيت المقدس، ومفيدًا منه، وخلَفَه في بعض وظائفه.

ومن إطلاقات الكاتب على العلائي: «أبو سعيد الحافظ» [١٦ب]، «الحافظ أبو سعيد» [٣٠أ]، «الشيخ الحافظ أبو سعيد» [٥٣ب]، «الشيخ صلاح الدين» [٢٨أ،

٢٨ب، ٣٤أ، ٥٠أ]. وصرَّح في مواضع بلقبه ونسبته «الشيخ صلاح الدين العلائي» [١٩أ، ٣٢أ، ٣٦ب].

٥- عُرف عن البرهان ابن جماعة كتابةُ مثل هذا الكناش المليء بالنقولات والمناقشات والفوائد، قال الحافظ ابن حجر: «وقفت له على مجاميع مفيدة بخطه»[١٣].

٦- أكثَرَ الكاتبُ في كناشه من نقل القصائد الطوال، والمنظومات، والمقاطيع، والأبيات، واقترح في حواشي بعضها ما يراه أحسنَ تعبيرًا وألطف. وقد قال ابن حجر في ترجمة البرهان ابن جماعة: «وكان محبًّا للآداب، مُصغيًا للأمداح، كثيرَ البذل للشعراء...، ومع ذلك فكان ينظم نظمًا عجيبًا»[١٤].

٧- روى الكاتبُ عن بعض أهل زمانه بالإجازة، أو ذَكَرَ إجازتَهم له، وكلهم ممَّن تحتمل روايةُ البرهان ابن جماعة عنهم، وهم: نجم الدين القحفازي (ت ٧٤٥هـ) [٢٢ب، ٢٧أ]، محمد بن جابر الوادياشي (ت ٧٤٩هـ) [٢٥أ]، أحمد بن مسعود بن ممدود (ت ٧٤٩هـ) [٦٥أ]، العلائي (ت ٧٦١هـ).

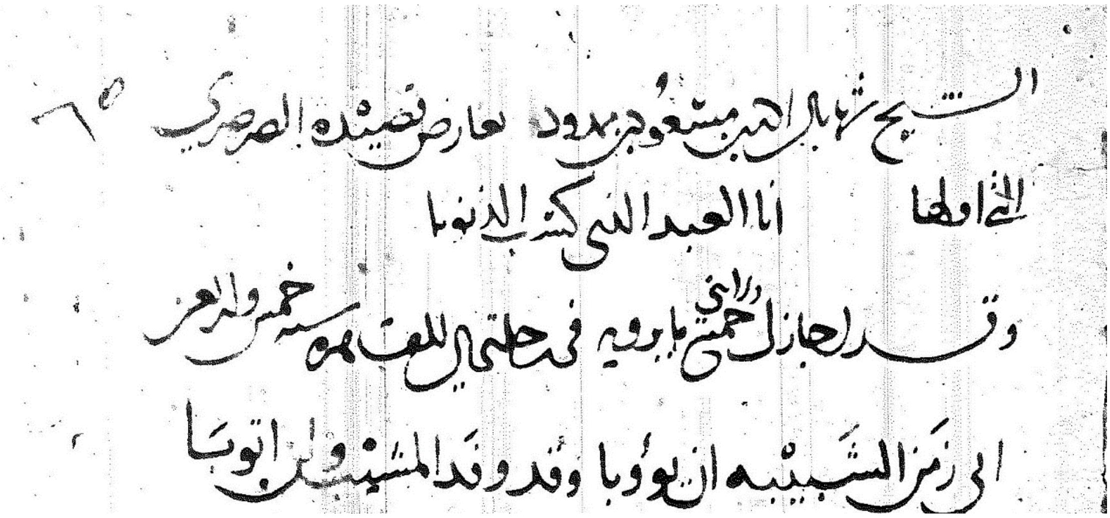
كما بيَّن الكاتبُ عند ذِكرِه لأحمد بن مسعود بن ممدود أنه أجازه في القاهرة، وأرَّخ ذلك، قال: «وقد أجاز لي، ولابني، جميعَ ما يرويه، في رحلتي إلى القاهرة سنة خمس وأربعين»، أي: وسبعمائة، وكان البرهان إذ ذاك في زمن الطلب والرحلة، وله عشرون سنة[١٥].

---

(١٣) الدرر الكامنة (٤٢/١). **تنبيه:** جاء في الفهرس الشامل (٤٢٥/١/التفسير) أن لتفسير البرهان نسخةً في مكتبة برلين باسم «الفوائد القدسية والفرائد العطرية»، لكني راجعت مصدر المعلومة، وترجَّح لي أن ذلك كناشٌ آخرُ من كنانيش ابن جماعة، فعسى الله أن ييسر الحصول عليه، والوقوف على فوائده.

(١٤) إنباء الغمر (٣٥٥/١).

(١٥) لا يُستشكل أنه لا يُعرف للبرهان ابنٌ سوى محب الدين أحمد، وقد مات مراهقًا بعد أبيه بخمس سنين -كما في تاريخ ابن حجي [١٤١أ/قطعة من كشفي قيد التحقيق]، والأنس الجليل (١٠٨/٢)-، بل الدلائلُ القويةُ المسوقةُ آنفًا تُثبِت أن الخطَّ للبرهان، ومن ثَمَّ يَثبُت بها أنه كان له ابنٌ سنة ٧٤٥هـ. ولعل الولد مات مبكرًا في حياة أبيه، فخمل ذِكرُه، والله أعلم.



الشيخ شهاب الدين مسعود بن محمود يعارض قصيدة الصرصري
التي أولها أنا العبد الذي كسب الذنوبا
وقد أجاز لي جميع ما يرويه في رحلتي للعقبة سنة خمس وأربعين
إلى زمن الشبيبة أن يؤوبا وقد وفد المشيب ولن أتوبا

وحيث أحال البرهانُ إلى رحلةٍ له سنة ٧٤٥هـ، فذلك يفيدُ أنه كتب كُنَّاشَه هذا، كلَّه أو جُلَّه، بعد تلك الرحلة، كما أنه دعا لشيخه الذهبي [١٥أ] مرةً بقوله: «فسح الله في مُدَّته»، وأخرى بقوله: «أبقاه الله تعالى»، مما يقطع بأنه كتبه قبل وفاة الذهبي عام ٧٤٨هـ.

وبعد:

فقد ارتأيتُ أن أكتفيَ بإثباتِ النص كما كتبه ناسخُه، وضبطِه بالشكل، تاركًا فحصَ مضامينه وتحليلَها ودَرسَها لمن ينهض لذلك من أهل الاختصاص.

وقد نقل ابنُ جماعة في كناشه بروايته عن شيخه الذهبي -أيضًا- مقطوعَتَين شعريَّتَين أُخرَيَين له في الوصايا والرقائق، ولم أجدهما منشورتَين في موضعٍ آخر، فاستحسنتُ إلحاقهما بمنظومته في الاعتقاد.

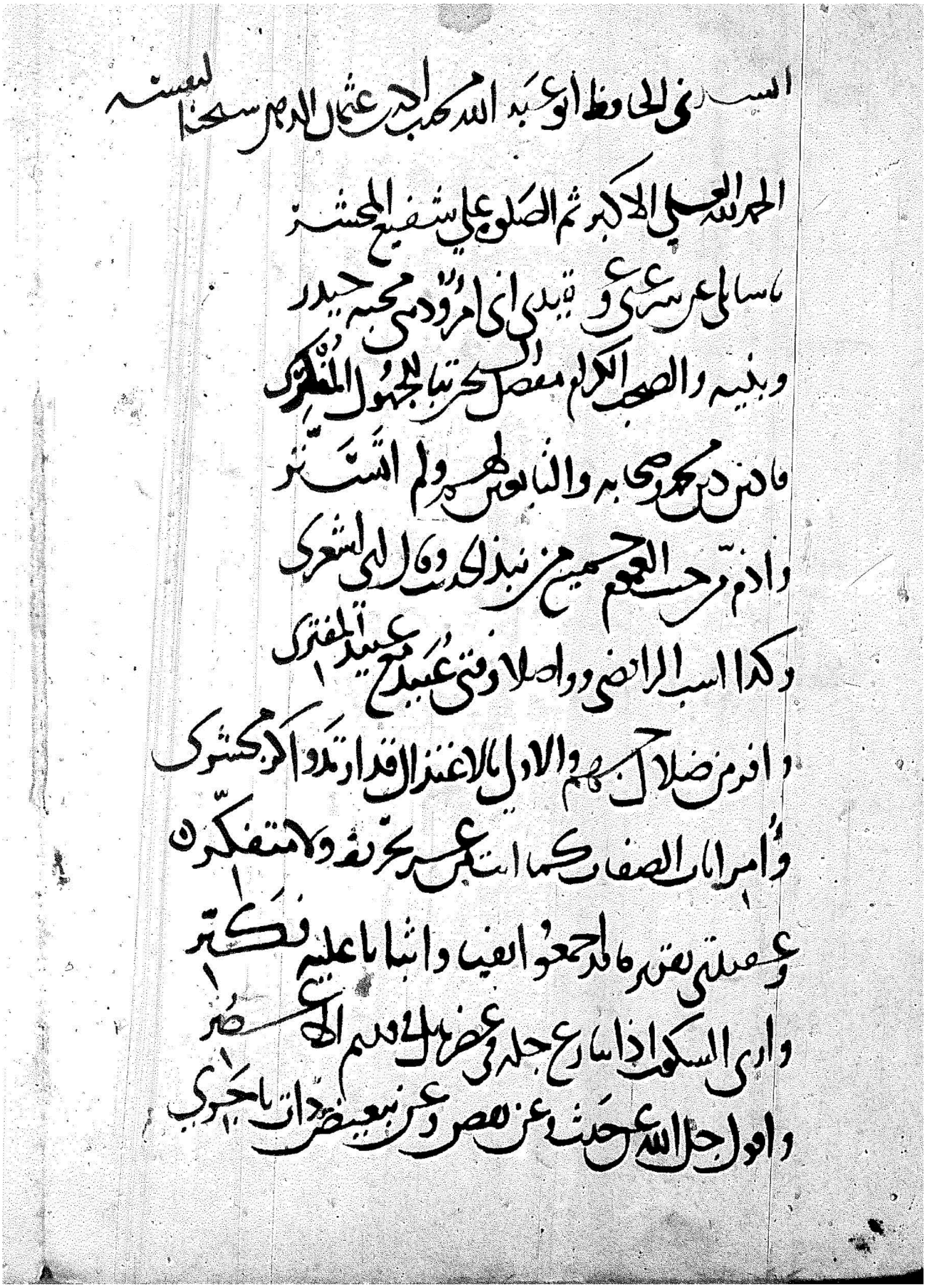
واللهَ أسأل أن ينفع بهذا الجهد كاتبَه وقارئَه، إنَّه نعم الوكيل والمستعان.

٣٠ جمادى الآخرة ١٤٤٠هـ

* * *

[صور النسخة]

(منظومة الاعتقاد)


[illegible] الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي سامحه الله بمنه

الحمد لله العلي الأكبر ثم الصلاة على شفيع المحشر

يا سائلي عن مذهبي وعقيدتي [illegible] محبة حيدر

وبنيه والصحب الكرام [illegible]

ما دين دين محمد وصحابه والتابعين لهم ولم [illegible]

[illegible] الأشعري

وكذا أسب الرافضي [illegible] المفتري

[illegible]

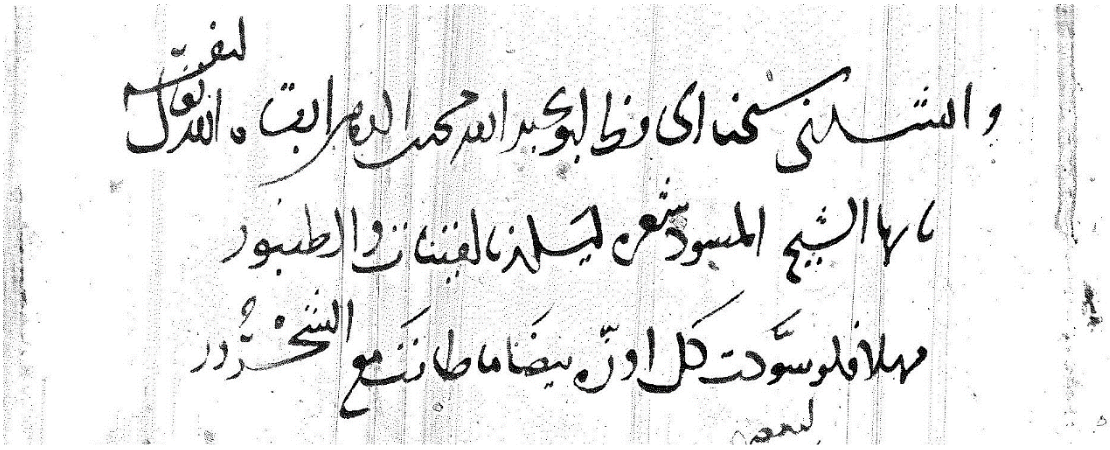
وأمر آيات الصفات كما [illegible]

[illegible]

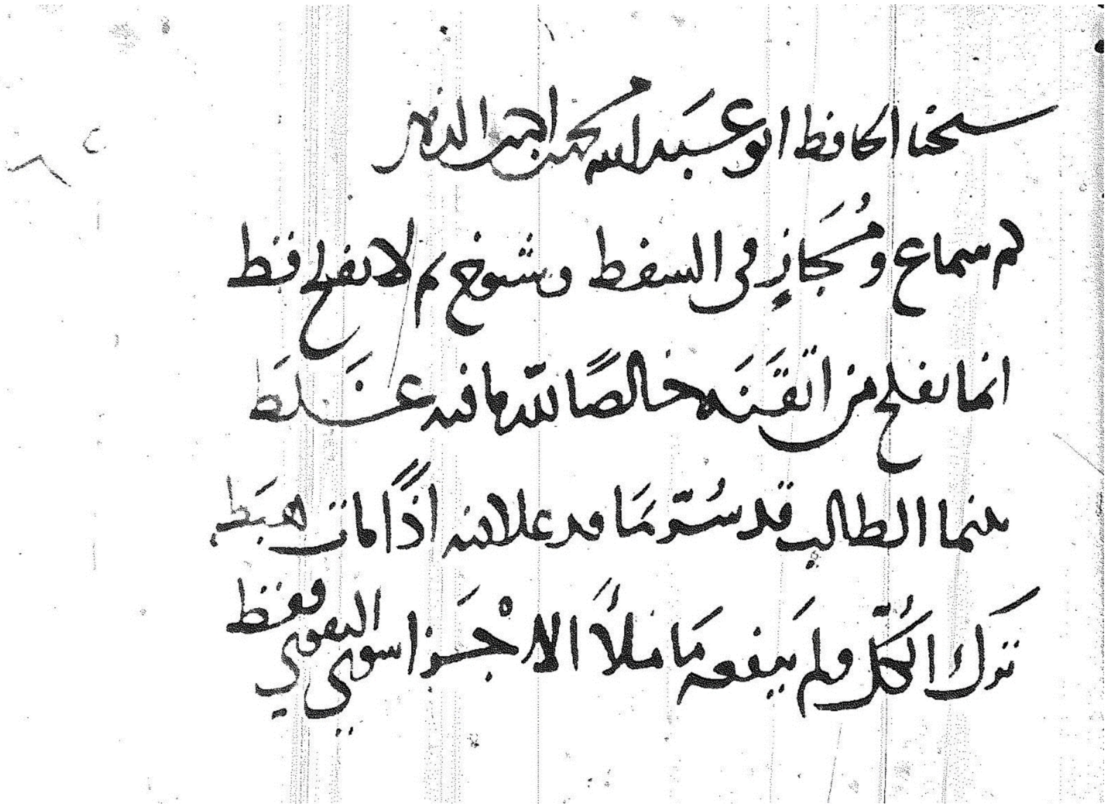
وأرى السكوت [illegible]

وأقول جل الله عن [illegible]

(مقطوعة)


وانشدني شيخنا الحافظ ابو عبد الله محمد الذهبي ابقاه الله تعالى لنفعه
يا ايها الشيخ المسود شعر لحيته بالقنان والطنبور
مهلا فلو سودت كل اديم بيضا ما طابت مع التحنيط در

(مقطوعة)


سمعنا الحافظ ابو عبد الله محمد بن احمد الذهبي
لي سماع ومجاز في السفط وشيوخ ثم لا افلح قط
انما المفلح من اتقنه حافظا لله ما فيه غلط
فيما الطالب قد يستر ما قد علاه اذا مات هبط
ترك الكل ولم ينفعه ما ملأ الاجزا سوى اللهو فقط

[النصُّ المحقَّق]

أَنشَدَنِي الحافِظُ أبو عَبدِالله؛ محمَّدُ بنُ أحمدَ بنِ عُثمان الذَّهَبي -شَيخُنا- لِنَفسِه(١٦):

الحَـمْـدُ للهِ الـعَـلِـيِّ الأَكـبَرِ ... ثُمَّ الصَّلاةُ على شَفِيعِ المَحْشَرِ

يا سـائِلِي عن شِـرْعَتِي وعَقِيدَتِي ... إِنِّي امْرُؤٌ دِيني مَحَبَّـةُ حَيْـدَرِ

وبَنِيهِ والصَّحْبِ الكِرَامِ مُفَضِّلُ الـ ... ـشَّيْخَيْنِ تَبًّـا لِلجَهُولِ المُنْكِرِ

فَـأَدِينُ دِينَ مُحَمَّـدٍ وصِـحَـابِهِ ... والتَّـابِعِينَ لَهُمْ ولَمْ أَتَسَـتَّرِ

وأَذُمُّ مِن حَيثُ العُمُومِ جَمِيعَ مَنْ ... نَبَذَ الحَدِيثَ وقال إِنِّي أَشْـعَرِي

وكَذَا أَسُـبُّ الرَّافِضِـيَّ ووَاصِـلًا ... وفَتَى عُبَيْـدٍ مَعْ عبيـدِ المُفْتَرِي

وأَفِرُّ مِنْ ضُـلَّالِ جَهْمٍ والأُلَى ... بِالإِعْتِزَالِ قَدِ ارْتَدَوْا كَزَمَخْشَـرِي

وأُمِرُّ آياتِ الصِّـفَاتِ كَمَا أَتَتْ ... مِنْ غَيرِ تَحرِيفٍ ولا مُتَفَكِّرِ

وعَقِيـدَتِي تَقْرِيرُ مَـا قَـد أَجْمَعُوا ... نَـفـيًـا وإِثْـبَـاتًا عَـلَـيـهِ فَـكَـبِّرِ

وأَرَى السُّـكُوتَ إذا تَنَازَعَ جِلَّةٌ ... في عَصْـرِنَا بَلْ في قَدِيمِ الأَعْصُـرِ

وأَقُولُ جَلَّ اللهُ عَن حَدَثٍ وعَن ... نَقْصٍ وعَن تَبْعِيضِ ذاتٍ يا جَرِي

/١٤ب/

وأنشَدَنِي شَيخُنا الحافِظُ أبو عَبدِالله؛ محمَّدُ ابنُ الذَّهَبي -أَبقَاهُ اللهُ تَعالى- لِنَفسِه(١٧):

يا أَيُّها الشَّـيْخُ المُسَـوِّدُ شَـعْرَهُ ... لِيَـلَـذَّ بِـالـقَـيْـنَـاتِ والطّـنْـبُـور

مَهْلًا فلَوْ سَـوَّدْتَ كُـلَّ إِوَزَّةٍ ... بَيْضَاءَ ما طارَتْ مَعَ الشَّحرُور

/١٥أ/

---

(١٦) من الكامل.

(١٧) من الكامل.

شَيخُنا الحافِظُ أبو عَبدِالله؛ محمَّدُ بنُ أحمدَ ابنُ الذَّهَبي(١٨):

كَمْ سَمَاعٍ ومُجَاز في السَّـفَطْ ... وشُيُوخٍ ثُمَّ لا يُفْلِحُ قَطْ
إِنَّما يُفْلِحُ مَنْ أتقَنَهُ ... خَالِصًا للهِ ما فِيهِ غَلَطْ
بَيْنَمَا الطَّالِبُ قَدْ سُرَّ بِمَا ... قَدْ عَلَا فِيهِ إذا ماتَ هَبَطْ
تَرَكَ الكُلَّ ولَمْ يَنفَعْهُ ما ... مَلَأَ الأجْزَا سِوَى التَّقْوَى فَقَطْ

/٦٢أ/

*   *   *

(١٨) من الرمل.